الأهرام

١٩٦٨/٤/٥

انى أؤدى واجبى .. والذين يحبون مصر مطالبون اليوم بأن يقدموا اليها شيئين .. العمل والأمل

أم كلثوم

تتحدث بعد رحلتها إلى المغرب

لا يستطيع الانسان أن يسأل الظواهر الطبيعية كالبرق والمطر ، أيضا لا يستطيع أن يجرى حوارا مع قطعة من الماس . كل ما يستطيعه أن يصف آثار البرق او يتأمل الاشتعال الداخلى لقطعة الماس . ولقد راودنى هذا الاحساس فى اللقاء الذى قابلت فيه أم كلثوم

غرفة الصالون فى بيتها المطل على النيل .

لون الحيطان هو البيج الغامق . ثمة لوحتان فى الحجرة . طبيعة صامتة او لوحة تضم عدة زهور لرسام اكاديمى ، ولوحة كبيرة تواجه من يدخل الغرفة للملاحة عربية فى دقتها وفخامها بلاس . ولسوف يبدو منظر النيل قريبا على الحجرة الاتيعة ببراياها المتعددة التى تدخل ضمن تركيب الاثاث .

الحجرة توحى بالهدوء والبساطة ، وام كلثوم تصب الشاى فى اكواب صغيرة مذهبة ، وانا اهيىء اوراقى والقى نظرة اخيرة على الاسئلة وداخلى احساس مطلق بالعبث ، كثير من الاسئلة بدت بلا معنى ، وام كلثوم ظاهرة لن يتيسر عصرنا من تحليلها لانه يقف منها موقف الرجل البدائى من السيرق ... وتذكرت ما كتبه عنها مراسل مجلة التايم الامريكية « فى الخميس الاول من كل شهر ، ولمدة تسعة اشهر على طول العام ، وعندما تقرب الساعة من العاشرة مساء ، ينسحب الضجيج والناس من طرقات المدن الكبرى فى المنطقة العربية ويخيم هدوء غريب ، يحدث ذلك ابتداء من امارات الخليج الى المغرب على المحيط الاطلسى . ويتسلل الشيوخ بحذر المتآمرين الى خيامهم الحريرية فى الصحراء ، وينجيح الموظفون فى المقاهى والصالونات والحجرات وينتظر الجالسون جميعا مولد السماعة المباشرة جوار اجهزة الراديو وقد وجهوا محطاتهم جميعا نحو محطة القاهرة . وتبدأ ام كلثوم غناءها . تستمر الاغنية ٧٠ دقيقة واحيانا ١٢٠ دقيقة . وهى تعيد نفس الفقرة بعد ان تنفذ اليها تنوعا جديدا ، تغنى عن الحب ، عن ثماره المرة والعذبة ، وتبكى الرجال ويغمى على النساء وتسود الشرق كله موجة من النشوة . وينتهى الغناء فى الثالثة صباحا . وينتهى اجمل يوم فى الشهر كله .

ويختم المراسل الامريكى حديثه عنها بقوله « رغم اختلاف الناس على عديد من الاشياء فى الشرق فانهم متفقون على الحقيقة التالية — ان هناك شيئين لا يتغيران فى الشرق الاوسط . الشىء الثانى هو الاهرام . اما الشىء الاول فمعروف . صوت ام كلثوم » .

. . . . . .

قلت لنفسى : ان الصحفى قد ادرك انه امام ظاهرة لا تكفى الاسئلة لشرحها . غير اننى لا استطيع تقليده . قلت لام كلثوم — محاولا كسر حاجز الصمت بيننا — كيف وجدت احساس الناس فى رحلتك الاخيرة فى المغرب (كنت اقصد كيف استقبل الناس فنك ، ويبدو انها لم تكد تفكر فى فنها فى هذه اللحظة لانها اجابت) :

— كان المدوان وقع عليهم . لقد وجدت هناك اكثر مما كنت ارجو ، كان اسم مصر يتردد على اكثر من فم وفى اكثر من صحيفة .. ماذا اريد اكثر من ذلك . وسكتت قليلا ثم عادت تقول : احسست ان شعب المغرب وملك المغرب يحبون مصر ورائحة مصر . ان الملك انسان بكل معنى الكلمة ، لقد اخجلنا جميعا بكرمه .

. . . . . .

كنت افكر فى تأثيرها عندما تغنى .

هناك غناء يقنع الانسان وسط اعظم ذكرياته عذوبة ورقة ، ومن هذا النوع غناء ام كلثوم . وهى عندما تغنى تصبح مهدئا لمتاعب الحياة ، احيانا يتوقف الزمن ويذوب المكان ، ولا يبقى غير اللحن والكلمة .. حتى اللحن والكلمة يتبددان ولا تبقى غير قصة الحب الخاصة للمستمع . لا يبقى غير حبه هو وذكرياته هو باحلامه هو وعذابه هو . ولعل هذه ميزة ام كلثوم الاولى ، قدرتها على توصيل المعنى بقدر من الحرارة والثراء بحيث يجد فيه كل

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

أم كلثوم و ٤ صور من المغرب ... والصور رغم كل شيء تعجز عن تصوير الحب الذى استقبل النسائم به سيدة الغناء العربى

انسان قصة حبه الخاص ولرحله الخاص وألمه الخاص . وهى لا تخلق الالحان ، ولكنها تحسها وتطوقها ثم تؤديها فى الصورة التى لم تكن فى خيال الملحن وكان يتمنى ان تكون فى خياله .

■ سؤال : .....

أم كلثوم : لم تكن عندى فكرة عن المغرب . لم اكن اعرف أهى صحراء أم بلاد زراعية مثلنا . غيرت رأيى بعد ان هبطت فى الدار البيضاء . غيرت رأيى فى الطريق . خرجنا من هذه البلدة لنسير فى طريق يشق نفسه بين اشجار الزيتون والبرتقال والعنب . لست افهم لماذا يذهب الناس الى سويسرا . الرباط بلد بيضاء . تبدو من بعيد مثل زهرة من السوسن وسط حقل اخضر . وهناك مدن كل بيوتها حمراء . تقاليد تطيب ان تطلى كل بيوت المدينة بلون واحد ، هذا يمنح المدينة طابعا مميزا .

. . . . . .

كنت اتأملها وهى تتكلم . كم تغير احساس الناس بأم كلثوم بعد حرب يونيو . كشفت الحرب كثيرا من قيم الفنانين ومعادنهم امام رجل الشارع ، كانت أم كلثوم وسط قلب الخطر تغنى . كانت تتحرك نحو تجمعات الناس وتغنى لهم . وكانت كلماتها عن الحب تكتسب مزيدا من الكبرياء والحزن ، كما كانت كلماتها عن الوطن جريئة وشجاعة . كانت كلماتها رجالا .

والمصريون شعب عريق وحضر . ومثل هذه الشعوب قد تتعرض لأزمات ، وأزمات هذه الشعوب لا تقتلها . قد تحزنها او تغضبها أو تمرضها لكنها لا تقتلها . ولا تنسى هذه الشعوب بحساسيتها المرهفة من يقف الى جوارها فى لحظات المحنة . ولهذا السبب احس الناس انهم يحبون ام كلثوم فى مصر لشىء اكثر من مجرد الغناء . وبعد ان كانت هذه السيدة هى طريق الحب وخطوة المحب ، بعد ان كانت عطش العاشق ووجد المجبر صارت بين الرموز رمزا لما فى مصر من اصرار شجاع يرفع سلاحه من اجل وطنه .

وتأكيدا لهذا المعنى كانت رحلاتها الاخيرة الى اوربا والدول العربية .

آخر رحلاتها كانت الى المغرب .

ولقد انتظرتها المفاجأة فى مطار المغرب .

اقلعت الطائرة من مطار القاهرة فى طريقها الى مراكش . بدأت الرحلة طيبة ثم ساء الجو فى نهايتها .. وهبطت ام كلثوم مرهقة متعبة الى ارض المطار . وسجلات عدسات السينما والتليفزيون المشهد الآتى ..

فى البداية كان هناك فراغ هول الطائرة . فراغ من الارض اللامعة المبللة بالمطر . ولم تكد ام كلثوم تظهر على سلم الطائرة فى الركن البعيد حتى تراجع هذا الفراغ .. وبدأت جموع من الناس تملؤه .. لحظة بعد لحظة كان الفراغ يتضاءل . وامام هؤلاء الناس يقف رجال البوليس متشابكى الايدى فى محاولة يائسة لوقف زحف الموجة البشرية .. وهى موجة جاءت كما يجىء الموج دائما بأمر من جاذبية القمر .. وطوال الرحلة فى المغرب كان المشهد يتكرر .. وفى المطار افسطرت سلطات الأمن الى استدعاء جنود الجيش لكى تستطيع ام كلثوم ان تقطع المسافة بين الطائرة وصالة المطار والسيارة التى تنتظرها خارج المطار .

■ سؤال : .....

— أم كلثوم : اكتشفت انه تسعى لمثل . احسست بذلك على المستوى الفنى . ان غناءها التواشيح الدينية ساند هناك . والموشحات الأندلسية معروفة . وهناك كثير من الفرق التى تغنى هذه الموشحات . الاولاد والبنات والاطفال يحفظون الموشحات الاندلسية ويغنونها . اعلناها نحن وتمسكوا هم بها . غنيتها معهم .

■ سؤال : .....

— أم كلثوم : غنيت معهم ايضا « مالى لقيت [illegible] فيه أن حفظ الهوى او شبعا » .. لاحظت شيئا آخر ، توهج العاطفة الدينية فى نفوسهم ودخولها فى حياتهم اليومية وتقاليد الميلاد والافراح .. زفة العروسة هناك تقول « لمخطرى يا حلوة يا زينة » ونحن نقول ابتهالات دينية .

■ سؤال : .....

— أم كلثوم : كتبتها الاعجابى بها .. اقرؤها عليك ان احببت . تقول كلمات زفة العروسة المراكشية « السلام على رسول الله ، لاجياه الا جاه سيدنا محمد . الله مع الجاه العالى . اللهم صلى عليك يا رسول . يا جاه النبى العظيم . الجنة للصابرين . الله ينصر علم النبى » .. وتغنى هذه الابتهالات بشكل جماعى مؤثر . ويظهر هذا الروح الدينى والعادات العربية فى كثير من الاشياء . ياكلون بايديهم على الصوانى العربية المنقوشة رغم وجود الرئيس الفنى . البيت المغربى ضرب بالروح العربية . والحجاب نصفه موجود ، لانه يغطى نصف الوجه ولايبقى غير العينين . الواسعتين . الاسوار القديمة والبوابات الاثرية لاتزال تحت رحمة الزمن . عندهم مئذنتان عربيتان من القرن السادس عشر ، وليس فى العالم كله غير ثلاث مآذن منها . اثنتان فى مراكش ، وواحدة فى اسبانيا . وكل مئذنة فى مراكش يخطط امامها الشوارع بحيث تكون هى البعد النهائى الذى تنتهى عليه هى من يسير فى اوله . الرقص الشعبى منتشر هناك ويتكون من مجموعات من الراقصين والراقصات يبلغ عددها ١٥٠٠ راقص احيانا .

.....

١٥٠٠ راقص .. نعم . حدث هذا فى مراكش . كانت هى تغنى فى حفلة الملك الاتيتة ، وامامها ترجم الناس احساسهم باعزازها الى قرار فنى ، حشدوا لها ١٥٠٠ راقص وراقصة ، واستقبلوها بأحدى رقصاتهم الشعبية بما يصاحبها من غناء . ويستحيل أن يتخيل المرء معنى ١٥٠٠ رجل وامرأة يرقصون على نغمات واحدة . انك تحس ان الارض كلها تشترك مع الايدى والاقدام فى الاداء الفنى .

> 99 الشرق بروحه وعاطفته الدينية يحكم إحساس الناس بالفن فى المغرب
>
> قبل الظهور على المسرح كنت أحس بخوف شديد .. وأعتقد أن لهذا الخوف احترام المجهود 66

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

وانتهت الرقصة .. وهادت الموجة البشرية تلتحم بأم كلثوم .. فى كل مرة كانت أم كلثوم تجد نفسها فى مكان ، كان هذا المكان يتحول الى منطقة جذب بشرى على الفور . فى السوق الرئيسية فى مراكش اكتشفت ان السوق تشبه المولد فى المنصورة . ناس تبيع وناس تشترى وناس تغنى وخيام وانشهد وناس ترقص وقبيلة العبابدة العربية تمشى بلبابها اللافتة للنظر وسط السوق . وشدها السوق فاوقفت سيارتها وراحت تتفرج عليه واكتشف الناس ان أم كلثوم فى هذه السيارة . وتلاشت فراغات السوق لجاة وعاد المد البشرى يحيطها بذراعيه .

■ سؤال : .....

— أم كلثوم : يحلظون الاغانى بالحانها حفظا مدهشا . اى تغيير فى اللحن او الاداء او اى وقفة غير معتادة تلاحظ على الفور . فى قصيدة الاطلال وقفت عند « كم » بنينا من خيال حولنا . شغطت على الميم طويلا فى « كم » . والتقط الجمهور بحساسيته هذه الوقفة . وجادلتنى الصحف على هذا التصرف فى الاغنية بقولها ثانى يوم ان ام كلثوم لحن الاطلال .

■ سؤال : .....

— أم كلثوم : صور كثيرة سوف تبقى فى ذاكرتى من الرحلة . صورة طفل مغربى اسمه فايز . تتت خارجة من احدى البيوت التى استضافتنا حين اندفع الطفل نحوى . كان يجرى بسرعة مجنونة ، وشدتنى طريقته المتهورة فى الجرى وخشيت ان يتكفىء على الارض ويصيب نفسه .. اخيرا وصل الى ، كان عمره ثمانى سنوات .. قبل يدى والقى بنفسه بين احضانى . كانت يداه ملجمين وقلبه يدق .. وحين احتضنته بكى ..

.....

صور كثيرة مؤثرة ان تبرح ذاكرة ام كلثوم . كنز غير مرئى من العاطفة والدفء الذى لا يقدر بثمن . ذهبت لتزور قصرا اثريا ولم يكن هناك احد خارج القصر حين دخلت اليه . وحين خرجت منه فوجئت باكثر من خمسة آلاف طفل يقفون امام الباب الخارجى فى هدوء . ظننت ان هناك مدرسة مجاورة ، وان هذا موعد خروج الاطفال ، ثم اكتشفت انها هى .. أم كلثوم .. كانت سببا فى تجمع كل هذا الحشد من اطفال القرية . سمعوا انها هنا فجاءوا يحيونها . والتحية هناك هى تقبيل ظاهر اليد ويلثمها . صور كثيرة لن تبرح ذاكرتها .. تدلع احد المغربيين منبع مساعدات بالسيارة لتوقع له بامضائها على اسطواناتها .. وسألها احد الطيارين الذين تلقوا طائرتها من تطوان ، بعد ان ترك مكانه لمساعده ودخل اليها .. سألها ان تعطيه منديلها كتذكار . قالت له — فى مصر نعتبر ان الاهداء بالمنديل فال غير طيب . قال لها — انا من الشمال وهذا فال طيب فى الشمال .

قدمت اليه منديلا هديا ، ولكنه قال لها .. لا .. اريد منديلا آخر غليت به قبل ذلك .

■ صور طريفة لتبتها هناك . ثالث فى الدار البيضاء لهواة أم كلثوم .. يشترط النادى لانضمام الاعضاء اليه ابتحسانا صغيرا يتصل بالغناء القديم والحديث لام كلثوم .. عدد اغانيها وبنى غنتها وكم مرة غنتها ومن الملحن وكيف تصرفت فى كل مرة .

وعلى المستوى الرسمى والشعبى حادت أم كلثوم بكنز من التكريمات .. اكرام الدولة لها ممثلة فى شخص الملك واكرام الشعب لها ممثلا فى شخص الالاف الذين قاموا بمغامرات كثيرة لشراء تذاكر حفلتها وحضور الحفلات .

■ سؤال : .....

— أم كلثوم : تختلف حول التلس .. لكنى غنيت لهم «امل حياتى» و «الاطلال» و « فات الميعاد » ، وفى مرة اخرى غنيت لهم « رباعيات الخيام » و « هو صحيح الهوى غلاب » . اعجبوا بابتهالات عمر الخيام فى مرحلة تصوفه وهو يدعو خالقه يا عالم الاسرار علم اليقين .

■ سؤال : .....

— أم كلثوم : ذلك لان فى كل حب قدرا من التصوف والتوحيد ، كما ان الصوفية هى الحب بمعناه النهائى الكامل . فى « واحشنى وانت قصاد عينى » يقول المحب ان احساسه بقوة الهوى وخوفه من فقد الحبيب يضغط عليه الى الحد الذى يفتقده فيه وهو حاضر . اليس هذا الخوف جزءا من حب الصوفية والتقدم لانضمام وهى حاضرة . لا اعتقد ان هناك اعظم من الحب الالهى . ان حركة النجوم

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

والقمر نراه فى موج البحر وتحرك مياهه فكيف لا تتحرك النفس الى القدرة الخالقة ، واصالة الالحان الدينية وتاريخها يترك اثره على الاحساس بها وتلوينها . ولسوف نجد فى تاريخ الموسيقى هؤلاء الاعلام الذين تربوا فى احضان الفكر والابتهالات الدينية ثم شقوا طريقهم الى شجن الغناء البحت وساروا سادته .

■ سؤال : .....

— ام كلثوم : يختلف تعبى لمعانى الكلمات فى الاغنية الواحدة كلما غنيتها من جديد . تكشف لى الكلمات احيانا عن سرها وتوحى بمعان جديدة .

■ سؤال : .....

— ام كلثوم : قبل الظهور احس بالخوف الشديد من لقاء الجمهور .. نعم فى كل مرة .. تسأل لماذا .. اعتقد ان هذا الخوف لاحترام الجمهور .

■ سؤال : .....

— ام كلثوم : سألتنى هذا السؤال صحفية من اكثر . قلت لها هل تتخيلين ان الممثل يحب فى كل رواية جديدة له ، يستحيل ان يحب المرء ليتنى ، ولقد احسست انها ليست مقتنعة .. واعتقد انى ازدى دورى فى نقل المعنى الذى احس بالكلام .

.....

قلت لنفسى هل تعنى مجرد احساس بالكلام . ثمة شىء يميز ام كلثوم عن بقية الاصوات الساحرة .. انها لا تنقل المعنى فحسب .. ليست مطربة فقط وليست مجرد صوت جميل .. وتذكرت جملة قالها شيخ الملحنين ذكريا احمد عنها ذات ليلة .. قال ذكريا ان الجملة الموسيقية بغناء الملحن تكون عادة الفصل منها بغناء المغنية لانه خالق الجملة ، اما بالنسبة لام كلثوم فالعكس هو الصحيح .. انها تجهد الملحن لمعرفة مواطن القوة فى صوتها ، وتتحداه بموهبتها ان يقدم اليها اصعب الالحان .. ثم تؤدى اللحن بصوتها الذى اداء متميزا له شخصيته .. وهى تتفنى من قصها للمعنى على الاداء وتلون هذا الاداء بحيث تتوهج عذابا وحبا فى كل مرة تتغنى فيها من الحب ، او تناء وتصوفا فى كل مرة تتغنى فيها من الحب الالهى .

■ سؤال : .....

— ام كلثوم : عندما تتذكر املى كلمة مصر ترتسم فى ذهنى الآلاف الصور الخاصة التى يعود تاريخها للطفولة . كان سيدنا الشيخ عبد العزيز رجلا يتصف بالوزالة . وقد اضطهدنى بصفة خاصة فى بداية حياتى فى الكتاتيب .. وكنت هاتفنى ان اذهب مبكرة الى الكتاب يوم الخميس ، حيث اكسر لوح ارتواز لبنت متسلطة منها ، او اعكس طلاة ، ثم دخل مفتش المعارف يوما فوجدنى ولم يجد سيدنا . وجاء سيدنا فلببه المفتش املى وقال له — البنت الصغيرة تجيد قيثة يا شيخ عبد العزيز .

واضطهدنى الرجل مدة يوما بعد يوم = كان يوجه السؤال فترفع البنات اصابعهن ولا ارفع يدى فيقول لى بالفصحى قومى انت يا فالحة . واستمر اضطهاده لى حتى اصبح مصدرا للعذاب = ثم اختفى سيدنا يوما وعلمت انه مات . ولم اصدق موته . ثم تصورت ان التعليم قد مات بموته . كنت اتصور ان سيدنا هو مخترع التعليم ، فاذا مات ارتحنا جميعا . واغلق الكتاب بعد موته وانتقلنا الى السنبلاوين . وكنت امشى ثلاثة كيلو مترات كل يوم ذهابا ومثلها فى العودة . وترحمت على الشيخ لهما رحمة . وتعلمت الا اسرع فى حكمى على الاشياء بعد ذلك .

■ سؤال : .....

— ام كلثوم : ما حدث كان درسا من الله لنا ، ورغم قسوة الدرس فقد ادركنا فيه رحمة الله .. ولقد كشف الدرس عن كثير من عوامل الهدم التى لولا لتكشفها لاستمرت فى عملها الشر

ومغزى الدرس ان نعود الى الله

■ سؤال : .....

— ام كلثوم : انى لاؤدى واجبى . والذين يحبون مصر مطالبون اليوم بان يتحدوا لها شيئين معا = العلم والامل = ☐

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية